

## المكتبات في بغداد بين الماضي والحاضر مكتبات شارع المتنبي

د. وفاء أحمد سعيد  
مركز أحياء التراث العلمي العربي  
قسم توثيق بغداد  
جامعة بغداد

### المقدمة

حظيت القراءة بالعناية والتقدير من لدن مختلف الديانات والمجتمعات، وكانت محط أنظار المفكرين والباحثين الذين من خلالها شكلوا موضوعات العلوم المختلفة وتناولتها النظريات والأطاريح الكثيرة والمتعددة. فهي تنطلق من جوانب متعددة تتناولها جميعها خلال الكتابات المختلفة مثل اللغة التي كتبت بها، التي من خلالها يستطيع القارئ ان يفهم ما فيها، او تشير لقضايا في علم النفس وهذا يكون مدعاة لابرار العمليات الذهنية التي قد تكون معقدة وذلك حسب نوع النص أو النصوص المكتوبة وكيف سيكون فهمها وادراكها.

ومن خلال القراءات والاطلاعات المختلفة نجد على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره البرتو مانغويل <sup>(1)</sup> في كتابه (تاريخ القراءة) من محاولة التاريخ للقراءة من خلال الكتابة، وذلك حين لاحظ إن الكتابة بدأت في سوريا والعراق، وإن السومريين هم أول من اعتمدها أساساً للتعبير عن الحقائق والأفكار. وهذه الإشارة التي ذكرها البرتو تهرباً من تحديد تاريخ لبداية عمليات -القراءة- نجدها في مراجع ومصادر أخرى سبقت كتابه هذا. كما يجد البرتو في قراءة القرآن الكريم وعلومه الكثير مما يمكن أن يضعه في تاريخ القراءة وإن لم يستوعب جيداً أو لم يشغل نفسه بفهم القضية المشهورة التي سجن بسببها الامام احمد بن حنبل (رحمه الله) وعُذب حين قال "إن القرآن كلام الله وليس خلق الله كما كان يعتقد الحكام المعتزلة"، ولكنه التقط مقولة إن القرآن هل هو كلام الله الذي اوحاه الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ام هو ماقرؤه الأعين والألسنة الكثيرة؟ كما أشار الى آداب قراءة القرآن الكريم التي ذكرها الغزالي (رحمه الله).

ومما سبق كتاب البرتو هذا مقالته الصولي مثلاً في (أدب الكاتب) <sup>(2)</sup> : روي عن كَعْبِ الْأَحْبَارِ إنه قال " أول من كتب الكتاب العبري والسرياني وسائر الكتب آدم (عليه السلام) قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين ثم طبخه، فلما أغرق الله الارض أيام نوح (عليه السلام) بقي ذلك فأصاب كل منهم كتابهم، وبقي الكتاب العربي الى أن خص الله به اسماعيل (عليه السلام) فاصابها وتعلمها".

وهناك نصوص اخرى كثيرة من هذا القبيل نجدها في كتب التراث المختلفة ، بل هناك من ذهب الى تأكيد صحة ارتباط القراءة بالخلق منطلقاً من بعض الإشارات الواردة في الكتب السماوية وخاصة تلك المتعلقة بتعليم الله (سبحانه وتعالى) آدم (عليه السلام) الأسماء التي ورد ذكرها في الآية (31) من سورة البقرة وقوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم (وعلم ادم الاسماء كلها ثم عرضها على الملائكة ..... ) صدق الله العظيم .

وسواء ارتبطت الكتابة والقراءة في نشأتهما بالمجتمع السومري او كانتا من الصفات التي رافقت خلق الإنسان . فان أغلب الدارسين نظروا اليهما بوصفها نقلة متميزة في حياة الإنسان .

ولقد اثار الجاحظ والتوحيدي مسألة القراءة من زاويتي اللذة والقلق، ودفعاً بالقارئ الى استحضار كامل قواه اثناء عملية القراءة.

ولم تتوقف كتب التراث العربي الاسلامي عند هذا المقدار ، بل اثارَت قضايا متعددة تتعلق بالقراءة والكتابة كاستنساخ الكتب وإعارتها ، وإستعارتها والتهميش والمحافظة عليها واختيار وقت قراءتها وضرورة إعادة عملية القراءة حتى تركز في الذهن . وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد اخذت بإعجاب كثير من الدارسين والباحثين فإن ذلك راجع في الأساس الى اعتنائها بالقراءة وبما يستتبعها من فعاليات اخرى كالكتابة والتحصيل والعمل وهو اهتمام يتجاوز كل تصور.

### هدف البحث

يصعب في بحثنا هذا تتبع اوائل المكتبات البغدادية ، وتكمن الصعوبة في ضياع الكثير من الأصول ، ففي غياب تشريع قانوني عراقي متكامل للكتاب تصبح مهمة البحث عن أهم المكتبات التي أسست ، والكتب التي طبعت في تلك السنوات مغامرة ، إذ ان عدم إحتفاظ أغلب باعة الكتب بسجلات توثق عملهم ، أو ضياع وتلف هذه السجلات بعد وفاتهم خاصة وإن اغلب هذه المكتبات قد أغلقت أبوابها ولم تعد موجودة . كل هذه العوامل وغيرها الكثير تجعل مهمة البحث في هذا المجال تواجه صعوبة. وتجدر الإشارة الى عدم وجود مؤرخين في تلك الفترة يعملون على تسجيل حركة الكتب وتوثيقها وهذا يعتبر امراً في غاية الاهمية لتوثيقه دور رواد نشر الثقافة في العراق . إلا إنها برزت خلال عقدين سابقين من الزمان وتم نشر عدد من الدراسات والمقالات التي فيها محاولة للتوثيق وتؤرخ وترصد بعض جوانب التاريخ الثقافي في العراق كعرض تأريخ سوق السراي المركز الاول لتجارة الكتب في بغداد. من هنا هدف البحث الى محاولة توثيق تأريخ بعض من المكتبات التي أسست وأزدهرت وأنتشرت في شارع المتنبي وخلفية كل مكتبة بدايةً من مؤسسها والى نهاية بعض منها أثر التفجيرات الأخيرة في هذا الشارع العريق .

## المكتبات في بغداد وعراقه ماضيها

تمثل المكتبات وسيلة من وسائل الإتصال مع العالم وقناة من قنوات متعددة ، توصل المعلومات لأكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع ، فهي تمد المجتمع بمعلومات أساسية تساعد على تقدمه وتطوره وإزدهاره ، وأيضاً على تقدم الصناعة و الزراعة و التجارة و السياسة و الإقتصاد وغيرها . كما إنها يمكن أن تقدم البحوث العلمية والتقارير في جوانب الحياة الفكرية المختلفة وتمنح القارئ او المستفيد منها بإختلاف خلفياته الثقافية أو تعليمه فرصة للأطلاع والقراءة والاستفادة مما هو مكتوب . وتجدر الإشارة هنا الى إن مصطلح أو لفظة المكتبات ظهر حديثاً ، ففي سابق الزمن اختلفت التسميات فمثلاً إستخدمت لفظة خزائن الكتب والتي أشار اليها الأستاذ كوركيس عواد في كتابه (خزائن الكتب القديمة في العراق) <sup>(3)</sup> . ولايشك امرؤ في أن مبعث الثقافة والحضارة في كل عصر وأوان هو العلم ، ولايقوم علم إلا على مؤلفات تُدَوّن ومعلومات تُكتنز في أسفار ، يتألف من اجتماع شملها وإنضمام بعضها الى بعض، ثروة ادبية وعلمية زاخرة ، يطلق عليها اسم (خزنة كتب)أو (دار كتب) او غير ذلك من الأسماء .

كما يذكر أيضاً إستخدام لفظة سوق الوراقين والوراقة والوراقون <sup>(4)</sup> ، ويذكر المؤرخون ومنهم الطبري (310 هـ) ان سوق الوراقين في بغداد كان قريباً من باب البصرة أحد أبواب مدينة المنصور وتمتد بين منطقتي القنطرة وطاق الحراني في قطيعة(وضاح) في الكرخ- تمثل هذه المنطقة حالياً المنطقة المسماة بالشالجية - ووضاح هذا من موالى الخليفة المنصور . واستمر الحال هكذا حتى العهد البويهي حيث إنتقل سوق الوراقين الى الجانب الشرقي من بغداد ، ومن المعروف ان الخليفة المنصور كان قد أخرج الأسواق خارج أسوار المدينة المدورة ولعل إقدامه على تشييد بعض البنايات في الجانب الشرقي وبناء قصر الخلد على الشاطئ الغربي كان لأفهام الناس بانه لا خوفٌ عليهم من وجودهم خارج الأسوار. ويقال ان السبب الذي دفع المنصور الى نقل الأسواق ما بلغه ان تجار غرباء يبيتون داخل اسواق المدينة وان وجودهم خطر على المدينة <sup>(5)</sup> .

ويذكر نيبور <sup>(6)</sup> في رحلته في القرن الثامن عشر عند مروره ببغداد : " لم يكن هناك وراقين وسوق كتب مثل القاهرة التي اشتهرت بسوق الوراقين حيث أن الذي يحتاج الى كتاب يستطيع الحصول عليه بسهولة من سوق الوراقين بعد أن يدفع ثمن معين وبعد فترة يتم الإتفاق عليها حسب حجم الكتاب وسعته وحسب رغبة الراغب في إضافة بعض النقوش والزخارف والتذهيب وغيرها من امور التزيين ، أما في بغداد فانك لن تستطيع الحصول على ما تحتاج من الكتب إلا بعد وفاة أحد العلماء اذ يتم بيع كتبه في مزاد يعد لهذا الغرض " . هكذا جرت العادة حيث يذكر نيبور .

ويمكن أن نفسر كلام نيبور هذا بما حدث في بغداد من مآسي على مر الزمن من غزوات متلاحقة وحروب وحرق كتب وأنهار إسود لونها من الحبر الذي كتبت فيه كتبها بعد غزو هولاكو واستمرار تلك المصاعب والمصائب مما جعل من إمكانية حفظ تأريخها وتراثها أمراً صعباً ولولا هذه المصائب لإنفردت بغداد بالكتب والكتابة ، الورق والوراقة، النسخ والمنسوخ والتأليف وغيرها .

### المكتبات البغدادية في العصر الحديث وشارع المتنبي

إنتشرت المكتبات البغدادية وتعددت وازدهرت في مراحل من تاريخ العراق كونه مهد الحضارات وصاحب تأريخ أقدم المكتبات . ولعدم وجود مؤرخين وموثقين لتلك المكتبات وتأريخها ، بداياتها ومراحل تطورها أو نهاياتها إندثر العديد منها ولم يعلم عنها أو يذكر إلا الشيء القليل ، إلا إن هناك بعض المكتبات التي تم تسجيل معلومات عنها وتحديداً الموجودة في شارع المتنبي والتي سيتناولها بحثنا هذا في محاولة لتوثيق عدداً منها والتي استطعنا الحصول على معلومات عنها منذ بداياتها ولحد الوقت الحاضر. و سيتم عرض للمكتبات حسب القدم. وقبل ذكرها سنقوم بالإشارة الى شارع المتنبي تسميته، موقعه ، أهميته وبشكل مختصر لان الحديث عن هذا الشارع العريق يحتاج الى عدة دراسات وكتابات .

### شارع المتنبي التسمية

سمي بشارع المتنبي تكريماً لشاعر العرب أبي الطيب المتنبي صاحب القول المشهور:  
أعزُ مكانٍ في الدنيا سرُجٌ سابحٌ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابٌ ويمتد تاريخ هذا الشارع الى العصر العباسي <sup>(٧)</sup> إذ كان يسمى بدرب زاخا وهي مفردة آرامية ، وكان مشهوراً بالمؤسسات الثقافية و الدينية ومنها مدرسة الأمير سعادة الرسائلي، ورباط أرجوان (أي تكية أرجوان) ، وفي العهد العثماني سمي بشارع الأكمخانة أي المخبز العسكري الذي كان يتولى تجهيز الوحدات العسكرية بالخبز أو مايسمى في العراق بالصمون.

### الموقع

يقع هذا الشارع في الجانب الشرقي من نهر دجلة وسط العاصمة بغداد ، والمسمى جانب الرصافة ، حيث يتفرع من أقدم شوارع بغداد و أشهرها – شارع الرشيد- و ينتهي – بسوق السراي- من جهة اليسار ، و-جديد حسن باشا- من جهة اليمين .

وينتهي بأقدم مقهى للكتاب و الأدباء وهو مقهى الشابندر.و يبلغ طول الشارع حوالي 250 متراً كما في الصورة رقم (1).  
وتتفرع من جانبيه عدة أفرع و أزقة كما في الصورة رقم ( 2 ) و الصورة رقم ( 3 )  
التي تبين موقعه مع عدد من المناطق المهمة المحيطة بمنطقة تواجده في تلك الجهة من العاصمة بغداد.

صورة رقم ( 1 ) والتي تبين موقع شارع المتنبي من شارع الرشيد و سوق السراي





صورة رقم (2) والتي تعطي صورة أكبر لجانب الرصافة والذي تقع فيه شوارع المتنبي و الرشيد



صورة رقم (3) والتي تكون فيها الصورة من مكان أبعد وتبدو فيها المدرسة المستنصرية



ويحتوي الشارع على عدد من المكتبات التي تضم كتباً و مخطوطات نادرة فضلاً عن بعض المباني البغدادية القديمة ، وتجدر الإشارة الى إن هذا الشارع له شهرة واسعة في الدول العربية حيث يسميه بعضهم بشارع المثقفين أو حي الكتب وهو من

أهم مراكز مكتبات الأرصفة ومعروف و مشهور أيضاً بأنه صاحب يوم الجمعة التي سنأتي على ذكرها لاحقاً.

في الخمسينيات من القرن الماضي بدأت المكتبات تنتقل من سوق السراي الى شارع المتنبي و بدأت المطابع و محلات تجليد الكتب تنسحب الى داخل أزقته حيث كانت أول مكتبة تنتقل اليه هي (المكتبة العصرية) ثم تبعتها (المكتبة الأهلية) ثم (المتنى) التي سنأتي على ذكرها لاحقاً.

أما الحديث عن الأهمية فيتأتى من خلال فتح مكتبات جديدة قديم أصحابها من مناطق مختلفة في العراق حتى تحول الشارع الى معرض دائم للكتب يزوره معظم الكتاب العرب و الأجانب الذين يقدّمون الى بغداد و يزورون الشارع وكان من أشهر الرواد كبار الرؤساء و السياسيين و الشخصيات الأدبية و الفنانين مثل : عبد السلام محمد عارف ، خالد الشواف ، عبد الرحمن البزاز ، اسماعيل الشيعلي ، لويس ماسينيون ، بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي و المستشرقين الفرنسيين لوي ماسينيون و جاك بيرك .

### مكتبات شارع المتنبي

شارع المتنبي ذلك الجمع المتحرك بهدوء بين الكتب التي تنشمس فوق الممرات والأرصفة وتظهرها العيون المتطلعة الى العلم و المعرفة بشغف و إهتمام . ذلك الشارع الذي يتقاسمه المكتبيون ممن أمتهنوا (مهنة التجارة بالكتب) كأجمل مهنة تعنى بالمعرفة و التطلع الى المستقبل، بعضهم تقاسموا طرقاته ومحلاته و أزقته ومن لم يكن ذو حظ جيد في الحصول على محل أو ركن فيه إفتش رصيفه وجوانب شارع بالكتب ومصادر المعلومات التي يملكها ليعرضها على رواد الشارع من مثقفين و طلاب علم وباحثين ومهتمين أو ممن تملّكهم حب الفضول و الاستطلاع و الرغبة في معرفة مامعروض و بعضهم الآخر ممن يملكون المحال أو ما مدرج على تسميتها بالمكتبات والمنتشرة على جانبي الشارع كلٌ منها له حكاية و رواية سنوردها وسنذكر بعضاً منها وحسب قدمها ووجودها في هذا الشارع وسيقتصر بحثنا هذا على المكتبات الموجودة في شارع المتنبي فقط.

### 1- المكتبة العصرية

وهي أقدم مكتبة موجودة في بغداد ، إذ أسست في العام 1908 ومؤسسها كان محمود حلمي . كانت بداية تأسيسها في سوق السراي ولكنها في نهاية الأربعينيات كانت أول مكتبة أنتقلت الى شارع المتنبي بعد حركة الانتقال للمكتبات الى هذا الشارع . وتضم المكتبة الآف الكتب التاريخية الثمينة والتي لايمكن أن تقدر بثمن ولايمكن أن نجدها في مكان آخر ، ولكن لسوء الحظ تم تدمير و احتراق المكتبة

بالكامل في عام 2007 إثر تعرض شارع المتنبي الى هجوم بسيارة ملغومة أدى الى مقتل العشرات من المتسوقين و الرواد للشارع وتدمير عدد من المكتبات و المباني . ويذكر إن محمود حلمي إستورد الكتب من مصر و بلاد الشام وطبع أول أعمال القاص الرائد محمود أحمد السيد ووزع دواوين الرصافي و الشبيبي محمد رضا . وكان وكيلاً لدار المعارف بمصر. ثم انتقلت ملكية المكتبة الى السيد محمد صادق القاموسي بعد وفاة محمود حلمي.<sup>(8)</sup>

## 2- مكتبة الزوراء

أسسها المرحوم (حسين الفلّلي) عام 1930 ، والآن يمتلكها نجله أكرم الفلّلي. وتقع في سوق السراي والذي أبى أصحابها مغادرة مكانها الأصلي . تضم هذه المكتبة كتباً قيمة في جميع الاختصاصات و اللغات ، ومنها ما يعود تأريخها الى العام 1800 و كذلك مخطوطات نادرة ، وهي الملاذ الذي يلجأ اليه الباحثون و طلبة الدراسات العليا . وكانت تعقد فيها اللقاءات الثقافية ، كما أن أصحابها يرشدونك الى أي كتاب أو مصدر قد يساعدك. لقد كان مؤسسها يستورد الكتب من مصر أثناء العهد الملكي وكان يسافر لأجل التجارة و الترفيه ، وكان في الخمسينيات من القرن الماضي يسافر أحياناً برفقة أستاذ اللغة العربية (الدكتور مهدي محبوبه) يرافقهم (الدكتور علي الوردي و الدكتور جواد علي) صاحب الكتاب المشهور (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام). ومن الطرائف التي يذكرها أكرم الفلّلي بإستمرار أن رئيس الوزراء نوري السعيد آنذاك (رحمه الله) كان يمر أحياناً من سوق السراي فناشده والده ذات مرة في أن يساعده ليحصل على خط هاتف ، وقد نُصِبَ ذلك الخط في اليوم التالي. وكان ذلك في عام 1949. و ذكر أكرم (ومعلوماته جزء من ذكريات يجدر توثيق معلوماتها و أرشفتها) أهم المكتبات القديمة في شارع المتنبي مثل : مكتبة (أحمد كاظمية) ، مكتبة (محمود القالبجي) ، مكتبة (الحيدري) ، مكتبة (إبراهيم الأعظمي) التي أنشأها في الأربعينيات ، مكتبة (نعمان الأعظمي) و أنشأت في نحو الثلاثينيات ، مكتبة (إبراهيم السدايري) إشارة الى إرتداء صاحبها السدارة البغدادية ، مكتبة (سيد باقر) ، مكتبة (المثنى) لصاحبها قاسم الرجب ، مكتبة (النهضة) لعبد الرحمن حياوي ، (المكتبة الأهلية) لشمس الدين الحيدري ، مكتبة (التربية) لعبد الحسن الراضي ، مكتبة (المعارف) لمحمد جواد . وأضاف في مستهل حديثه إن تجارة الكتب ليست كما كان متوقّعا منها ، فالكساد خيم عليها لهجرة الكثير من المتقنين و قراء الكتب و رغم ذلك فهو مستمر في هذه المهنة لعشقه لها و لأنه من الصعب ترك تأريخ الوالد و الأخ و الجهد الذي قاما به خلال عشرات السنين لإنشاء هذه المكتبة<sup>(9)</sup>.



### 3- مكتبة المثني

تعد مكتبة المثني لصاحبها محمد قاسم الرجب الذي أسسها عام 1930 أعظم مكتبات العراق و أوسعها نطاقاً . وسميت بالمثني تيمناً بنادي المثني القومي.<sup>(10)</sup> ولد قاسم محمد بن رجب في الأعظمية عام 1919 واشتغل مع المرحوم الحاج نعمان الأعظمي حيث تعلم منه كيفية بيع الكتب و شرائها وبقي معه سنين متعددة لينفرد بالعمل لوحده حتى صار صاحب أكبر مكتبة في العراق ، إذ ذاع صيتها في مصر و لبنان وسائر البلدان العربية و الإسلامية و الأجنبية ودوائر الاستشراق. وقد طبع على حسابه بالآلوفست عدداً كبيراً من الكتب مثل (تاج التراجم في طبقات الحنفية ) لأبن قطلوبغا نشره في بغداد عام 1962 ، كما أصدر عدة فهارس لمكتبة المثني عددها تسعة فهارس بدأت من عام 1958 حتى عام 1968 . كما طبع نواذر الكتب العربية القديمة في طهران بالآلوفست عام 1966 وقد نوه بها جميعاً الأستاذ كوركيس عواد في رسالته (مشاركة العراق في نشر التراث العربي) الذي نشره عام 1969 . وبقي المرحوم قاسم مثابراً و نشطاً في توسعة مكتبته حيث فتح له عدة فروع في البصرة والموصل ولبنان . وأصدر مجلة المكتبة التي كانت تعنى بالكتب و المكتبات لعدة سنوات وكان له مجلس عامر في مكتبته ضم الأدباء و الشعراء ومحبي الكتب وكان يسعى دائماً في مساعدة المؤلفين بشراء عدد من مؤلفاتهم عند طبعها تشجيعاً لهم وحثهم على التأليف و الإنتاج. ونشر من التراث العربي الإسلامي ما خفف العبء عن كاهل حكومات لدول كان يجب أن تضطلع بما حققه لتؤدي ما أداه من جليل الخدمات للثقافة العربية و الإسلامية عبر العصور و الأجيال . ولم يدخر وسعاً في زيارة أي بلد من بلدان العالم الشرقي و الغربي يعتقد إنه سيقف فيه على نواذر المخطوطات و الآثار العربية ليشتريها بأي ثمن تعرض فيه و ليزود بها المكتبات العامة العراقية التي أصبحت بفضل جهوده من أهم المراكز التي ينتهل منها رواد المعرفة و البحوث ما يحتاجون إليه من المراجع و المصادر ، وما ضمته مكتبة المتحف العراقي ومكتبة المجمع العلمي و مكتبة جامعة بغداد ومكتبة الأوقاف و مكتبة الجامعة المستنصرية وغيرها من المكتبات العامة كان بفضل إقدامه على جلب ما عجز الآخرون عن جلبه من الكتب و الآثار وكذلك له الفضل في مد المكتبات الخاصة المتعددة في العراق بما جعلها ترتفع عن مستويات أمثالها في العديد من الأقطار العربية.

ان الإقدام على تأسيس المكتبات العامة و الخاصة و التوسع في الإنفاق على هذه المكتبات ماكان يتحقق لولا إنصراف هذا الرجل الى توظيف كل ما يملك من الأموال و الجهود لإستيراد الكتب و التعريف بها بشتى الوسائل الإعلامية ليتعرف عليها من لم يكن يعرفها وليجد من التعريف بها ما يحفزها الى اقتنائها.

توفي محمد قاسم الرجب في العام 1974 في بيروت ونقل جثمانه الى بغداد ودفن في مقبرة الأعظمية. وتجدر الإشارة الى إنه كان يملك مجلساً يعقد في مكتبته يحضره رجال الفكر و الأدب و المعنيون بالكتب و المؤلفات وبقي هذا المجلس عامراً لحين وفاته.<sup>(11)</sup>

وكان المرحوم يستورد المطبوعات العربية قديمها و حديثها من أوروبا و أميركا و الهند و شمال أفريقيا و إيران و المغرب و سائر الأقطار العربية. ومن أعماله إعادة طباعة قصة ألف ليلة و ليلة. ويذكر إن المكتبة قد أسست في بادئ الأمر بـدكان صغير في سوق السراي وظل يتنقل بها من مكان إلى آخر حتى أشتري بيت الدكتور صائب شوكت فحواله الى مكتبة المثني<sup>(12)</sup>.

#### 4- مكتبة النهضة<sup>(13)</sup>

مؤسسها عبد الرحمن حياوي ، تأسست عام 1957 وكان صاحب المكتبة في بداياته عاملاً مع الحاج قاسم محمد الرجب (صاحب ومؤسس مكتبة المثني)، وكان الحاج قاسم مسانداً وداعماً لعبد الرحمن حياوي من بداية تأسيس المكتبة عام 1955 لحين اكمال المكتبة واستقلالها و عدها مكتبة خاصة به في عام 1957 في مكانها المعروف وسط شارع المتنبي إلى حين إغلاقها بسبب طمع اصحاب العقارات وتم اخلائها من مكانها الذي شغلته قرابة 42 عاماً ، إلا انها اعيدت بعد صدور بيان نشر في جريدة الوقائع العراقية الرسمية عام 1977 والذي يقضي بمنع المساس بالأماكن والمواقع الاثرية في بغداد ومنها شارع المتنبي وكل ماموجود فيه من مكتبات قديمة.

ويعد الكتبي الراحل عبد الرحمن حياوي أول من قام بتصدير الكتاب العراقي الى بيروت ودمشق والقاهرة وتركز نشاطه التصديري على بيروت بوصفها مركزاً لتسويق الكتاب العراقي . وساهم حياوي بجناح خاص بأسم مكتبة النهضة في اول معرض دولي للكتاب في لبنان كما اسهم في عدة دورات لاحقة للمعرض وكذلك في معرض النادي الثقافي في حلب ومن ثم عمان .

ولنشاط المكتبة تم افتتاح عدد من الفروع لها ، فتم افتتاح اول فرع لمكتبة النهضة في الباب الشرقي في ساحة التحرير سنة 965 ، ومن ثم في ساحة النصر عام 1970 ، وفرع الموصل عام 1980 . وبعد تراجع سوق الكتاب اغلقت جميع هذه الفروع وتم بيعها لزملاء المهنة من مكتبيين وأصحاب مكتبات .

توفي الحاج عبد الرحمن حياوي في 1993/3/17 ، وتولى اولاده الخمسة من بعده اكمال ما بدأه والدهم الذي وسع نطاق عمله نتيجة إستفادته من علاقته مع عدد من الناشرين المهمين العرب وخاصة (أكرم الطباع) صاحب دار القلم المعروفة ، كما أقام علاقة مع الناشر ( إبراهيم شرف الدين) صاحب المكتبة الحديثة في بيروت .

استمر أولاده الخمسة في إنجاح عمل المكتبة وتواصل العمل في ميدان النشر والطباعة وتوزيع الكتاب العراقي الذي برز فيه ولده (نجاح) الذي تميز برعايته لأعمال ونشر المؤلفات العراقية لأبرز المبدعين والأكاديميين وكذلك رعايته للمسابقات والانشطة الثقافية التي تشرف عليها الدار وتسهم برعايتها. وتعتبر مكتبة النهضة من انشط المكتبات العراقية في مجال النشر والتوزيع ، إذ أن لها مطبعة خاصة وهي (مطبعة بابل والتي تقع في منطقة البتاوين ) تطبع فيها عدد من الكتب وغيرها من المصادر فكان اول كتاب قامت المكتبة بطبعه هو (واجب الدولة في تأمين معيشة الفرد) عام 1958 ، كما تشرفت بطبع المصحف الشريف بمختلف الطباعات اللانقة والأنيقة ، كما أصدرت الكتاب المهم (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للعلامة جواد علي، وكذلك (الموسوعة الجنائية)، و(مختصر ابن كثير) للشيخ أبراهيم المشهداني ومجموعة مؤلفات الشيخ محمد جواد مغنية . كما افتتحت مكتبة القرآن الكريم في تقاطع 14 رمضان والمنصور والتي اشتهرت ببيع الكتب الدينية وإهداء المصحف الشريف زيادةً على مختلف أنواع التسجيلات الصوتية والمرئية للبرامج والمحاضرات الدينية وعددت من القضايا والموضوعات الخاصة والمتعلقة بالثقافة الاسلامية .

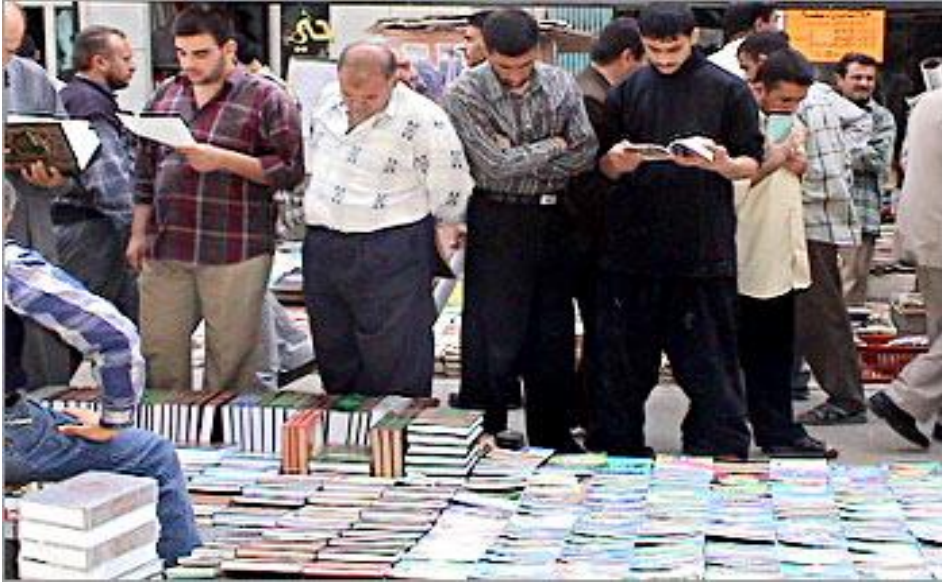
إلا إن مكتبة النهضة (الأم ) تعرضت الى نكبة كبيرة شأنها شأن عدد من المكتبات في شارع المتنبي والذي اسفر عن استشهاد محمد عبد الرحمن حياوي وابن اخيه الذي كان يدير المكتبة القانونية وهي الوحيدة و المتخصصة ببيع الكتب القانونية في العراق. وبقي نبيل عبد الرحمن في مكتبته حتى بعد استشهاد أخيه محمد و أبنه على أمل عودة الحياة الى شارع المتنبي لأنه وجه العراق الثقافي و التراثي . ومن هذا المنطلق أعاد نبيل إعمار مكتبته و التي كلفه إعادة إعمارها عشرات الآلاف من الدولارات ، وإستمر إخوانه المتبقين في دعمه ورفده بالكتب و المصادر الأخرى في محاولة لإعادة الحياة الى جدرانها وأداء دورها في مساعدة طالبي العلم و المعلومات.

## 5-مكتبة الشطري (14)

صاحبها في الوقت الحاضر (نعيم الشطري) . أصل هذه المكتبة التي تقع الآن عند شارع المتنبي هو مكتبة النور التي أنشأها عام 1958 في مدينة الشرطة التابعة للناصرية (محافظة ذي قار) . وقد أقفل مكتبة النور وتوجه الى الكوت، و لكنه وبعد سنتين توجه الى بغداد حيث تعرف صاحب المكتبة على أحد بائعي الكتب (القديمة) وهي الكتب التي لم تلق رواجاً فبقيت في المخازن التابعة لدور النشر اللبنانية . وقال صاحب المكتبة : كنا نقوم بجمع كميات كبيرة منها وبيعها شراكة. وكانوا يستخدمون لهذا الغرض عربة دفع . وتباع الكتب بمبلغ خمسين الى مائة وخمسين

فلساً. ثم أخذوا يصدرون هذه الكتب الى البصرة و غيرها من المحافظات وبذلك يحصلون على بعض الأرباح.

وفي عام 1970 و ببناء العمارات الحديثة قام باستئجار محلين ومنذ ذلك الوقت باشر بإفتتاح مكتبة الشطري. ويعد نعيم الشطري أقدم بائع للكتب في شارع المتنبي. في التسعينيات قام بتأسيس مزاد الجمعة الذي لاقى رواجاً وإقبالاً كبيرين . وقد عدّ رواد الشارع من مثقفين و باحثين و غيرهم نعيم الشطري مسؤول مزاد الكتب في سوق الجمعة.



صورة رقم (4) باعة الكتب في شارع المتنبي

بعد أحداث التفجير في شارع المتنبي قال الشطري إن هذا العمل جرى فقط في زمن هولاكو و اليوم يحدث مجدداً من المجرمين القتلة الذين إسترخصوا حياة الأبرياء و يضيف إن قتل الكتاب أخطر من قتل الإنسان ، لأن الإنسان له عمر ، أما الكتاب فيبقى خالداً وقد أحرقوه ، إنهم يحاولون قتل المعرفة في هذا البلد وهم يقتلون الأساتذة و الطلبة في الجامعات و اليوم يقتلون الكتاب في أعرق شوارع بغداد التاريخية.

## 6-مكتبة دار البيان (15)

أنشأها الشيخ (علي الخاقاني) عام 1962 في شارع المتنبي ، وكانت محط أنظار الأدباء و العلماء و الصحفيين ، ينهلون منها معارفهم ويتفاعلون في منتداهم مع نظرائهم من أهل الثقافة و الأدب . بعد وفاة الشيخ علي خلفه نجله (بديع الخاقاني). اشتهرت المكتبة و عرفت بأنها أول مكتبة أدخلت أسلوب الخصم على أسعار كتبها خصوصاً لطلاب الجامعات و المدارس ، وكانت تتسامح و تتساهل عند بيع الكتب لشريحة ذوي الدخل المحدود و تباع لهم بالتقسيط إنطلاقاً من مبدأ نشر الثقافة دون النظر الى أهمية تحقيق الأرباح.

قام المرحوم علي قبل وفاته بتأسيس دار وطنية أهلية بالتعاون مع بعض دور النشر العراقية مثل مكتبة النهضة وصاحبها المرحوم (عبد الرحمن حياوي) ، ومكتبة التربية وصاحبها المرحوم (عبد الحسن الرازي) ، والمكتبة الأهلية لصاحبها (شمس الدين الحيدري) ، والمكتبة العصرية لصاحبها (محمود حلمي) ثم من بعده (صادق القاموسي) و شركة العروبة التي كان صاحبها لبناني الأصل . عندما إكتمل موضوع هذه الدار طرحت هيكليتها و عرض الأمر على وزير الثقافة و الإعلام (المرحوم شفيق الكمالي) في السبعينيات لإستحصال الموافقات الرسمية والأصولية، إلا إن الوزير كان يحبذ أن تكون هذه الدار حكومية و ليس أهلية . وبعد محادثات مع أصحاب الفكرة و خصوصاً ( الشيخ علي الخاقاني) تم طرح عدد من المقترحات ومنها أن تكون هذه الدار معنية بواجب أساسي يتضمن تصدير الكتاب العراقي على وجه الخصوص الى جميع أرجاء الوطن العربي و العالم الإسلامي . ففعلاً تمت الموافقة بعد إجراء بعض التعديلات، وأنشأت دار حكومية وطنية تصدر الكتاب العراقي وقامت هذه الدار الحكومية بالاتصال بالكتاب و الأدباء لغرض تصدير كتبهم بعد طبعها.

## 7-مكتبة دار التربية (16)

أنشأت في النجف عام 1964 ثم أنتقلت الى بغداد في شارع المتنبي عام 1968 وكان صاحبها المرحوم ( عبد الحسن الرازي) . وقد بقيت هذه المكتبة في موقعها ليومنا هذا وهي تتعاطى الكتب التراثية و التاريخية و الثقافية و العديد من الكتب الرائجة هذه الأيام وهي كتب اللغة و النحو والأدب و التأريخ القديم و المعاجم و القواميس.

وهناك عدد من المكتبات التي يشار اليها بالبنان و التي لاتتسع الصفحات لذكرها أو التي لم يتم توثيقها و تدوين حاضرها و ماضيها سنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

-المكتبة العربية لصاحبها ( نعمان الأعظمي ) و التي تأسست عام 1905 ، وكان هو مؤسس أول مطبعة كبيرة في العراق. وتقع في سوق السراي.  
-المكتبة الأهلية لصاحبها شمس الدين الحيدري و التي تأسست عام 1920 .  
-مكتبة (إبراهيم السديري ) نسبة الى إرتداء صاحبها السدرة البغدادية.

### سوق الجمعة والثقافة البغدادية

لقد شكل سوق الجمعة ظاهرة حية في الثقافة البغدادية ، فقد كان الادباء والمثقفون وخصوصا ممن يلتقون في مقهى الشايندر الموجود في شارع المتنبي كل يوم جمعة ويتجولون في شارعهم ويفقون بين مكتباته وتحديداً أمام مكتبة الشطري التي تقوم يوم الجمعة بفتح مزاد علني لبيع الكتب المعروضة والواصله حديثاً للسوق والتي قد تكون كتباً مباحة من أديب أو عالم إضطر الى بيع محتويات مكتبته لحاجة ما أو هي لورثة إستغنوا عنها بعد وفاة صاحبها الذي قضى حياته ورحلته في البحث والقراءة. ويعد الشطري كما ذكرنا سابقاً مؤسساً لمزاد الجمعة في بداية عقد التسعينيات الذي لاقى رواجاً كبيراً واشتهر في جميع أرجاء الوطن العربي . ويتوافد رواد الثقافة في بغداد والمحافظات القريبة منها لأقتناء ما يحتاجونه من كتب أو للأطلاع على المعروض الجديد ، كما انه المكان المناسب ليلتقي فيه الأساتذة والكتاب والأدباء على غير موعد. ولطلبة الجامعات وطلبة الدراسات العليا نصيب من هذه المظاهرة الثقافية المتجددة كل يوم جمعة حيث يسعى قسم كبير منهم لتأمين احتياجاتهم من كتب ومراجع وقواميس قد تباع بنصف سعر الطبعة الاصلية المعروضة الى جانبه في هذا السوق . أما بالنسبة للباعة من (اصحاب البسطات) فأنهم يتوافدون منذ الصباح الباكر حاملين معهم ما يريدون عرضه من كتب ومجلات، حيث يعرضونها بطريقة منظمة ومرتبّة ويحمل كل منها سعره ليتعرف عليه الوافدون الى السوق ويعرفون ثمنه. وكلما اقترب الوقت من الظهيرة كلما انخفضت اسعار هذه الكتب لان الزبائن يبدأون بمغادرة الشارع اما لتأدية صلاة الجمعة او العودة الى منازلهم حيث يرغب الباعة بالتخلص مما لديهم من معروض املاً في الحصول على مجاميع جديدة .

والحقيقة التي يجب ان تذكر هنا أن العراق يعد من أرخص أسواق بيع الكتب في العالم وحتى في أحلك الظروف التي مر بها لانه يحتفظ بخزين من الكتب سواء الموجودة داخل المكتبات المنزلية ، او المكتبات الخاصة التي قد لاتجد ما يضاهيها في معظم بلدان العالم وحتى المجاورة للعراق . وتجدر الإشارة الى معلومة في غاية الاهمية هي إنه بعد أحداث عام 1991 وبدء الحصار فقد اقدم الكثير من اصحاب المكتبات وتحديدأ الخاصة الى بيع مقتنياتهم من كتب ومخطوطات نادرة ،



مما جعل الكثير من تجار الكتب وخصوصاً في الاقطار العربية المجاورة الحضور الى بغداد وشرائها بأثمان لا تتناسب واقيامها الحقيقية . وقد لاحظت وزارة الثقافة والاعلام لاحقاً هذه الظاهرة وبحذر شديد مما دعاها في حينها الى إصدار بيان وتعميم بعدم السماح بأخراج اي كتاب أو مخطوطة الى خارج القطر إلا بموافقات خاصة . وهذا التصرف حد وبنسبة كبيرة من عملية الترحيل الى الخارج مما فسخ المجال لأصحاب المكتبات الموجودة في شارع المتنبي تحديداً الحصول عليها وإقتنائها وايداعها مكتباتهم.



صورة رقم (5) باعة الكتب على الأرصفة يوم الجمعة

ونتيجة للأوضاع السياسية و الأمنية السيئة و تزايد الانفجارات في العديد من مناطق بغداد(و التي كان شارع المتنبي و سوق الغزل و سوق الشورجة منها) سبباً في قيام الحكومة العراقية بإعلان حظر تجوال للمركبات يوم الجمعة من كل أسبوع ، الامر الذي قاد الى توقف حركة بيع الكتب و المزادات الخاصة بها مما أثر سلباً على الكثيرين من رواد ذلك الشارع وتحديداً رواد يوم جمعه والعمل على توقف الحياة في ذلك الشارع العريق.

وفي أول يوم من أيام شهر رمضان و المصادف 14 / أيلول / 2007 ، قررت السلطات الأمنية رفع حظر التجوال الصباحي ليوم الجمعة وتقليصه في بغداد . هذا القرار ساهم في إعادة الحياة الثقافية الى الشارع وقلل من الحزن الكبير الذي ملأ روح المثقف العراقي في مختلف المدن وفي بغداد تحديداً . ويمكن أن نؤكد على إن شارع المتنبي يشكل ملمحاً واضحاً في التلاحم الثقافي ، فما أن يتوفر بصيص من الأمل لإعادة نشاطه و حيويته حتى يقدم المثقفون الى هذا الشارع الذي يعد رمزاً للإلهام . إن إعادة الحياة له تعني إعادة الحياة الى كل شوارع بغداد ودروبها وأزقتها ومحلاتها.

### حرق الكتب وتدمير المكتبات في التاريخ ولغاية اليوم

ان حرق الكتب وتدمير المكتبات يعد من اهم الكوارث التي واجهت الحضارة العربية وتحديدًا الاسلامية منذ تاريخها الطويل وحتى يومنا هذا . هذه الكوارث كانت السبب الرئيس لتخلف الامة العربية وتأخر نهضتها العلمية وسر ضعفها مما جعلها هدفا سهلا للاستعمار وتحديدًا بغداد (مدينة السلام). لقد بنى العرب حضارات شامخة في البلدان التي فتحوها شرقاً وغرباً كالحضارة العباسية والفاطمية والاندلسية ، إلا ان تلك الحضارات اخذت بالافول بمجرد القضاء على المكتبات وحرق الكتب ومضايقة الادباء والعلماء والمفكرين والكتاب . كما واجه الكتاب في الوطن العربي في العصور المختلفة تحدياً كبيراً يتمثل في حرقه وتدمير مراكز وجوده وملاحقة مؤلفيه ومضايقتهم بل و قتلهم. لقد تعددت أسباب تدمير المكتبات وحرق الكتب أو دفنها في الارض أو رميها في مياه النهر، قد تكون هناك اسباب شخصية صرفة واخرى تتمثل بالخوف من اقتناء الكتب باعتبارها محرمة وممنوعة وبخاصة الكتب الدينية و الفلسفية والكتب العلمية كما ان هناك اسباب اخرى مصدرها الحقد والتعصب الاعمى والجهل القاتل (كما حدث في تفجير شارع المتنبي بمكتباته ومطابعه وعلمه وعمره الطويل وثقافته). وكان غزو البلاد العربية وإحتلالها من الأجانب وتدمير مكتباتها وحرق ما فيها من كتب سبباً في ضياع الملايين من الكتب والتي هي ثمرة جهود العلماء والفلاسفة ورجال الفكر والأدب والطب والفقه في عصور اسلامية مختلفة مما أدى الى ضياع الكثير من تراث الامة العربية الاسلامي و الفكري والثقافي بصورة خاصة ، وضياع التراث الفكري والثقافي الإنساني. و تعد عملية حرق الكتب تحديداً من أبشع البلايا التي احاطت بالكتب واشدها هولاً واكثرها ضرراً على مر العصور والازمان. فلقد التهمت السنة النار الوفاً بل ملايين لاتحصى من الكتب والمجلدات ،ومما ساعد على ذلك جهل الناس والتعصب الاعمى لجهة ما والإهمال. وقد يكون حرق الكتب لأسباب شخصية مثل :

1- ابو حيان التوحيدي من أولئك العلماء والادباء الذين اصيبوا في حياتهم بالفقر والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف وإحتراف الوراقة والنسخ وجوب الاقطار ، يقصد الوزراء والامراء لعلمهم يكافئون علمه وأدبه فلم يحظ من كل ذلك بطائل.

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه في حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له ، مع انه فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة، ولم يتم العثور فيما بين ايدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفا قصيرة واخبار ضئيلة.

واراد التوحيدي الانتقام من الناس الذين كفروا صنيعة، وجددوا علمه وأدبه فأحرق في آخر أيامه كتبه وقال : "اني جمعت اكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم...ولقد اضطرتت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن بالحر ان يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم". (17)

2- منيت اللغة العربية بخسارة كبيرة عندما حُرِقَ كتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي الذي وصف الحادث بما يلي "انه اشترى جارية نفيسة فغارت ابنة عمه ، وقالت: والله لا غيظنه ! وان غظته في المال لايبالي ، ولكنني أراه مكباً ليله ونهاره على هذا الكتاب والله لأفجعه به فأحرقته فلما علم ، اشتد أسفه ولم يكن عندي غيره من نسخة".

وقد كان أمر هذا الكتاب بعد حرقه يطوى من صحيفة الوجود لولا أن الليث بن نصر بن سيار تلميذ الخليل ، قد أقبل على حفظ هذا الكتاب في حياة مؤلفه فحفظ منه النصف . فلما مات أستاذه أملى النصف من حفظه وجمع علماء عصره وأمرهم ان يكملوه على نمطه وقال لهم : مثلوا واجتهدوا . فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس. (18)

اما أحداث الحرق الاخرى التي تجد الاشارة اليها لاهميتها :

1-شهدت مكتبة سابور التي اسست في عام 381هـ في مدينة بغداد مصيراً مأساوياً فهذه المكتبة تنسب الى مؤسسها ابو نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة البويهى وقد ذكرها المؤرخون تحت اسماء مختلفة فذكرها ابن الاثير تحت اسم (خزانة الكتب) وذكرها ابن تغري بردي و أبو العلاء المعري وياقوت الحموي تحت اسم (دار العلم). وتشير المصادر التاريخية الى ان عدد الكتب التي احتوتها بلغ ما يقارب 10400 كتاب من بينها 100 مصحف بخط ابن مقله. (19)

لم تعش هذه الخزانة طويلاً ، بل لم يتجاوز عمرها سبعين سنة ، لأن الأحداث الجسام التي حلت ببغداد كان لها اسوأ الاثر على هذه الخزانة. قال ابو الفرج بن

الجوزي في جملة حوادث سنة 451هـ ( 1059م ) : " احترقت بغداد الكرخ وغيره بين السورين ، و احترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها اردشير الوزير ونهبت بعض كتبها . وجاء عميد الملك الكندري فأختار من الكتب خيرها وكان بها عشرة آلاف مجلد و أربعمئة مجلد من اصناف العلوم ، منها مئة مصحف بخط ابن مقلة وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق ، فنسب ذلك الى سوء سيرته وفساد اختياره ، وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمر المدارس ودور العلم في البلاد الاسلامية ، ووقف الكتب وغيرها" .<sup>(20)</sup>

**3- بيت الحكمة ، دار الحكمة ، خزانة الحكمة** <sup>(21)</sup> : ببغداد لها تسميات مختلفة وردت في عدد من المراجع العربية قديمها وحديثها ولكنها اشتهرت بدار الحكمة وكانت من أعظم خزائن الكتب في العالم الاسلامي على إختلاف عصوره ودوله وظلت ردحا من الزمن تمثل الإشعاع الفكري العربي الإسلامي منذ ان اسسها هارون الرشيد (170-193هـ / 786-809 م) ورعاها ابنه المأمون ( 198-218هـ / 813-833م) وقد امتاز على اكثر خلفاء بني العباس بثقافته الواسعة وبمحبته العظيمة للعلم وذويه ، وبميله الظاهر الى الفلسفة إذ سعى الى توطيد اركان هذه الخزانة وتوسيعها وأغنائها بما استطاع جمعه من الكتب المختلفة الى حين تدميرها . وقد ضمت المكتبة مجموعات ضخمة من الكتب على اختلاف انواعها ، منها كتب التراث الاسلامي ، والسير والتراجم والكتب العلمية والفلكية، وكتب الكيمياء والطب والرياضيات وكتب الفلسفة والادب واحتوت المكتبة على مرصد فلكي ومخطوطات ومصورات بلدانية.

لم يتوقف دور بيت الحكمة على اقتناء الكتب وحركة الترجمة والمناظرات والندوات، وإنما تعدى ذلك الى رصد الاجرام السماوية وتسجيل نتائج تلك الأرصاد. كما حقق العلماء العرب من خلال مرصد المكتبة الفلكي في كشوف بطليموس ودرسوا كلف الشمس ورصدوا مواضعها .

دمرت المكتبة على ايدي المغول عند اجتياحهم بغداد سنة ( 656 هـ / 1258 م) والقوا بجميع محتوياتها في نهر دجلة وتحول ماء دجلة الى اللون الاسود كما ذكر وهو لون المداد المستخدم آنذاك واحرقوا المتبقي منها ودمروها بالكامل .

**4- خزانة سفيان الثوري** : وهو ابو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري الذي توفي سنة ( 161هـ / 777م) . ولقد أمتلك مكتبة كبيرة فيها كتب مختلفة من الفقه والعلوم الأخرى . وقد خشي سفيان سطوة المهدي العباسي وبطشه فأخفى عن الانظار وظل متسترأ عن المهدي في البصرة حتى وافاه الأجل هناك . وكان الثوري خائفاً على كتبه من المهدي فقام بدفنها ، وأوصى عمار بن سيف على خزانة كتبه الموجودة في مدينه الكوفة (بعد خروجه منها الى البصرة) وطلب منه ان يمحوها ويحرقها <sup>(22)</sup> .

5- تعد مكتبه عبد السلام بن عبد القادر بن ابي صالح بن جنكي دوست بن أبي عبد الله الجيلي البغدادي المدعو(بالركن) المتوفي سنه (611هـ/1214م) ، المكتبه الثانيه التي تحرق بأمر حاكم عربي وهو الخليفه العباسي الناصر لدين الله المتوفي سنه(622هـ/1225م) . واهتم عبد السلام بجمع الكتب الخاصة بعلوم الأوائل ،ومن بينها كتب الفلسفة واقتنى في هذا المجال وغيره كتب كثيرة . ونالت مكتبته شهرة واسعة . خاصةً وإنه جمع من كتب الفلسفة والكتب العلمية ما لم يجمعه غيره ، مما أدى الى التشهير به واحراق كتبه، وكانت كتب الفلسفة خاصةً ممنوعة في تلك الأيام بوصفها من نظر الجهلة والمتشددین مفسدة للعقل ، فقام الناصر بإعطاء الأوامر لإخراج كتب المكتبة كافة الى موضع في بغداد يعرف بالرحبة لحرقها بحضور الجمع الغفير وقد كلف بتنفيذ هذه المهمة عبيد الله التميمي البكري المعروف بأبن المارستانيه<sup>(23)</sup> .

تعددت الأسباب والموت واحد مثل يضرب ولايقاس عليه ، يقال لتعدد المصائب وهو ما حصل لبغداد فتعددت الأزمات التي مرت بها من حرائق وتدمير وهجمات وغزوات لكنها تنهض بعد كل مصيبة ، احترقت في البداية قديماً واحترقت كتبها (حديثاً) وعانت الثقافة ماعانت ، وكان اخرها (والذي نأمل ان يكون الأخير) تججير شارع المتنبي شارع الثقافة والعلم ، شارع التاريخ القديم والحديث ، شارع العلماء والأدباء وطلاب العلم والمثقفين .

### إنفجار شارع المتنبي

يقع شارع المتنبي (وكما سبق لنا الذكر) عند بداية شارع الرشيد أقدم شوارع مدينة بغداد وأحد أبرز معالمها . وتقع على مقربة من الشارع منطقة القشلة و التي كانت تمثل مقر الحكومة العراقية في العهد الملكي. وشهد هذا المقر تتويج عدد من الملوك الذين حكموا العراق منذ إستقلاله عن الدولة العثمانية ومازالت المنطقة حتى يومنا هذا تحتفظ بمعمارها القديم وهي تمثل شاهداً و معلماً تاريخياً لمدينة بغداد القديمة. هذا الشارع وبكل ما يحمله من عراقية وأصالة وثقافة و أدب تعرض الى حادث إنفجار بتاريخ ( 2007/3/5 ) وأعقب ذلك الإنفجار حريق هائل و دمار شامل للشارع وكل ما يحمله من ذكريات.

اعاد هذا الإنفجار الذاكرة الى غزو المغول قبل قرون عندما تحول لون نهر دجلة في عاصمة الرشيد الى اسود اللون ويقال ازرق اللون ، هذا الإنفجار خلط كتب شارع المتنبي معقل الثقافة العراقية والبغدادية تحديداً بدماء عشرات القتلى والجرحى ، واختلطت أوراق الكتب المتناثرة بالدماء والجثث المتفحمة على جانبي الشارع فيما كانت النار تلتهم المكتبات التاريخية و آلاف الكتب الدينية و التاريخية و

العلمية و الأدبية و القانونية القديمة و الحديثة ولم يبق منها إلا الأنقاض. كما في صورة رقم (6) والتي التقطت بعد التفجير حيث تبين الدمار الذي حل بالشارع.



صورة رقم (6) وتمثل الدمار الذي حل بالشارع بعد التفجير

ولم يكن من السهل التنقل في ذلك الشارع بعد الانفجار الذي أحدث حفرة عميقة وسط الشارع وتحديداً قرب جامع الحيدر خانة ، وألحق الضرر بسبعين متجراً ، أربعون منها تضررت و دمرت بالكامل كما في الصور رقم ( 6 ) و رقم ( 7 ) التي توضح الدمار الذي حل بمكتبة النهضة و التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة. إضافة الى تدمير مايقارب 15 من المطابع الصناعية الموجودة في الشارع و سبعة عمارات.

كما دمر أيضاً مقهى الشابندر العريق وهو معلم من المعالم المهمة في الشارع ، إذ دمر تدميراً كاملاً (وسنتحدث عنه مع مجموعة من الصور في صفحات لاحقة) إذ لايمكن وبأي حال من الأحوال تجاهله. ومما تجدر الإشارة إليه تدمير المكتبة العصرية وإحتراقها بالكامل وهي أقدم مكتبة في الشارع ، إذ تأسست عام 1908 وتضم الآف الكتب التاريخية الثمينة و التي لايمكن أن تقدر بثمن ولايمكن إيجاد بدائل عنها في مكان آخر. كما إن مكتبة النهضة وهي أكبر مكتبة في الشارع دمرت و إحترقت بالكامل ، وكانت تضم آلافاً من



الكتب التاريخية و الدينية و القانونية و مراجع قيمة تبحث في تاريخ العراق القديم و الحديث .



صورة رقم (7) وتبين الدمار الذي حل بمكتبة النهضة

كل هذا حدث في زمن هولاكو ومغول العصر الجديد وبات الجميع يتحسر على ماضى ويكون ويرددون (لاحول ولا قوة إلا بالله) على اعزاء فقدوهم قد يكونون اخوة ،ابناء واصدقاء .

تم وبعد هذا التفجير وبمدة ليست بالقصيرة وبصعوبة بالغة إعادة الحياة (وبشكل بسيط جداً مقارنةً مع ماكان عليه قبل التفجير) الى هذا الشارع العريق الصامد بوجه أي ريح وشهد يوم إفتتاحه مزاداً كبيراً لبيع الكتب حَضَرهُ مثقفون وأصحاب مكتبات وعشرات من باعة الرصيف الذين يقيمون مزادات الكتب في الهواء الطلق كل جمعة. لقد عبر المزاد عن روح الشارع الذي يختص ببيع الكتب منذ قرون حيث يتم بيع و شراء الكتب والمخطوطات النادرة إضافة الى مؤلفات أبرز الكتاب من عرب و أجانب .

ومع الفرح العام الذي ملأ قلوب الرواد و المثقفين ، إلا أن هذه الفرحة لم تكن كاملة ، فليس هناك أثر لعدد من المكتبات كما ليس هناك أي أثر لمقهى الشايندر حيث كان المثقفون يجتمعون هناك ويتناقشون وهم يرتشفون الشاي وسط الضجيج ،

فالمثقفون الذين يعدون التسكع في شارع المتنبي و تناول الشاي يوم الجمعة في المقهى من الطقوس الإلزامية و الواجبة لديهم.  
سابقى شارع المتنبي العريق شارعاً للثقافة العربية والاجنبية المتنوعة ،وصاحب الكلمة الحرة والتأريخ العريق وسينهض من جديد وسيظل عنواناً لمثقفي العراق وادباءه وطلبته وكل رواده ورواد مقهى الشايندر ورواد يوم الجمعة وسيعود هذا الشارع من جديد وسينهض من وسط الدمار وستعود شعلته ونوره من جديد يسطعان رغم الحاقدين والمتخلفين ، فهو الرئة التي يتنفس منها مثقفو العراق هواء الحرية و المعرفة.



صورة رقم (8) تمثل الشارع قبل التفجير و بعده

لقد اثارت هذه التفجيرات ذكريات واحزاناً عميقة وتساؤلات قد تتبادر الى الذهن خصوصاً وان التفجير الانتحاري كان متعمداً لهذا المكان الذي قدسته المعرفة وخلده التاريخ. الشارع الذي يريد أعداء العقل وقتلة الكلمة الحرة نفسه ومحوه من الوجود ، والصورة أعلاه تجعل العين تبكي دماً وتخرج الآهات و الحسرات بلا توقف ، لكن هيهات سيبقى الشارع مخلداً وسيعود من جديد وستزدهر ثقافته مرة أخرى وسيعود الى النهوض كالعنفاء التي تأبى الخنوع ، وسيظل شارع المتنبي حاملاً لمقولة (مصر تكتب، وببيروت تنشر، والعراق يقرأ) وسيعود الادباء وطلاب العلم والمثقفين وكافة الرواد لهذا الشارع الذي يقف على قدميه مرة أخرى وستبقى بغداد وشارعها العريض واقفان في وجه كل هجمة تريد قتل كلمة اقرأ التي تميز بها الاسلام كونها اول لفظ نزل على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي قال "اطلبوا العلم من المهد الى اللحد" و"اطلبوه حتى ولو كان في الصين".

### مقهى الشابندر

في نهاية شارع المتنبي المقابل لسوق السراي ، تقع أشهر مقهى في بغداد حيث كانت الملتقى الأسبوعي لرواد شارع المتنبي . هذه المقهى هي مقهى الشابندر والذي لايمكن أن نتجاوزه في صفحاتنا هذه لأنه جزء لا يتجزأ من شارع المتنبي و ثقافته و عراقته.

تأسست هذه المقهى عام 1917م ( كما في صورة رقم - 9-) وسميت بالشابندر نسبة الى أصحاب المبنى الذي تقع فيه هذه المقهى وهم ورثة (محمد سعيد الشابندر) من أعيان بغداد . وعند تأسيسها وبسبب قربها من خمس وزارات وبضمنها وزارة العدل ، حيث تتواجد بعض دوائرها ، فإن معظم روادها كانوا من رجال القانون من الحكام و المحامين ، وكذلك أصحاب الدعاوى الذين يراجعون المحاكم . وكانت خلال حقبة الخمسينيات تقام فيها حفلات المقام العراقي التي كان يحييها أحد أبرز قراء المقام وهو (رشيد القندرجي) وغالباً مايكون ربيع هذه الحفلات لصالح المؤسسات الخيرية.



صورة رقم (9) لمقهى الشابندر العريق

وبجوار مقهى الشابندر أيضاً دكان لبيع القرطاسية والطوابع المالية يعود لرجل من بيت الاحمدي.. وبجوار المقهى مصوران يعملان بالماكنة القديمة لتصوير من يحتاج الى صور خلال مراجعته للدوائر المجاورة وعلى الحائط في محل المصور قطعة من القماش

الاسود فيها مختلف التصاوير.. وفي المساء كان مقهى الشابندر محلاً لانتظار (فتح) المايخانة المجاورة له والتي تفتح بعد اذان المغرب او بانتظار القصخون او قارئ المقام العراقي وجوقة الموسيقى في بعض ايام السنة. كل هذا كان في زمن مضى . أما في زمن ليس بالبعيد (اربعة عقود من الزمان) كانت هذه المقهى الملتقى قد يكون اليومي و الإسبوعي للمثقفين ، حيث يرتادها معظم أساتذة الجامعات و الأدباء و رجال الإعلام الذين يزورون شارع المتنبي بالإضافة الى الزوار الأجانب. لهذا المقهى طقوساً خاصة حيث الكلام فيها بصوت منخفض ويمنع الكلام بصوت عالٍ ، ولا تمارس فيها بعض ألعاب اللهو كالدومينو أو الزهر (الطاولي) كما في المقاهي الأخرى ، بل يكتفى فيها بتناول الشاي و الحامض وتبادل الأحاديث . ولعل من أجمل جلسات هذه المقهى لجوء كل جماعة تحمل التخصص نفسه أو تخصص متقارب منه للجلوس معاً في أحد أركان المقهى. كما كان صاحب المقهى يجلس مع مجموعة من الحكام و المحامين وهكذا الحال.

أما بعد التفجير الأخير فقد دمر هذا المقهى تدميراً كاملاً وإحترق و أنتهى بشكل كامل حيث كان على مقربة من موقع الانفجار وما زاد على ذلك قدم بنائه كما في الصورة رقم (9).



صورة رقم (10) وتوضح التدمير الكامل للمقهى و إحتراقه

ومن الصورة أعلاه رقم (10) تظهر لنا اللافتة السوداء التي خط عليها نعي صاحب المقهى لأولاده الخمسة أثر هذا التفجير ومقدار الدمار الذي حل بها . وتم إعادة اعمار المقهى بعد حادث التفجير وعلى يد صاحبه الذي بالرغم من فقدانه لأولاده فقد أصر على اعمارهم و إعادة افتتاحه و الجلوس فيه بالرغم من ان كل ركن فيه يذكره بأولاده وما فقد.





صورة رقم ( 11 ) وتمثل مقهى الشابندر الذي أعيد افتتاحه مرة أخرى عام 2009

### الإستنتاجات

حاولنا في الصفحات السابقة الذكر تدوين كل المعلومات التي تم الحصول عليها عن أوائل المكتبات البغدادية وتوثيقها . وتم التوصل الى جملة من النقاط :

١. منذ القدم ولغاية اليوم لم تنقطع رغبة الإنسان بتخليد الذكريات و توثيقها سواء أكانت مفرحة أو مؤلمة . فنراه قد نقشها على الجدار أو الحجر أو الشجر وكتب معها عبارات تنم عن رغبة جامحة لغرض تخليدها للتواصل و المودة وعدم النسيان مهما أشتدت قسوة و جور الزمان. هذه الرغبة نقشت اليوم في هذه الصفحات التي تضمنت شارحاً عريقاً بمكتباته وكتبه ، مجالسه ورواده هو شارع المتنبي ذلك الشارع الذي يعده المثقفون و الرواد الشريان الثقافي البغدادي العريق وجزءاً لايتجزأ من الذاكرة التراثية و الثقافية العراقية.

٢. ذلك الشارع التراثي العريق يضم بين جانبيه مكتبات عجز بعض أصحابها أو تناسى تدوين تأريخها ليشار إليها فيما بعد وتذكر بوصفها جزءاً من تأريخه العريق و ماضيه الطويل . وتضم الصفحات محاولة لتثبيت تأريخ و توثيق عدد من المكتبات الموجودة فيه قد يكون أنتهى وجود بعض منها ، وإعادة أحياء البعض الآخر من جديد لتواصل مسيرتها وتحافظ على البقية الباقية من الثقافة العراقية و العربية ليس من أجل العراق نفسه فحسب بل من أجل الأمة العربية و ثقافتها.



٣. إن تدمير شارع المتنبي وتفجير سيارة مفخخة فيه أدى الى تعطل مصدر كبير وواسع للثقافة العراقية بل تدمير رمزاً من رموزها التي يشار اليها بالبنان في مختلف أرجاء العالم. إن هذا التفجير يعيد الى الذاكرة المسيرة الثقافية العريقة لمدينة بغداد تاريخياً ، فهو لاكو الذي أحرق مكتباتها و ألقى بكتبها الى نهر دجلة لم يمنعها من التربع على مجد الثقافة بين كل عواصم العالم ، إذ وبعد كل نكسة و نكبة تتعرض لها بغداد تعود فتنهض من جديد وتقف على قدميها وتعود ببناء مجدها وهذا هو شأن شارع المتنبي الذي ستعود إليه بل وعادت اليه الحياة ولو بشكل بطيء ولم يتعافى من جراحه ولكنه سينهض من جديد ليثبت للجميع إن الثقافة لايمكن أن تنتهي فالمكتبات عادت للحياة على الرغم مما مر بها وبدأت بلملمة جراحها وأعادت الحياة الى جدران مكتباتها وستعاود نشر الثقافة وستجمع من جديد روادها ومحبيها حولها رغم فقد الحاقدين . وسيظل شارع المتنبي شارعاً للثقافة وظاهرة ثقافية فريدة من نوعها لكل المثقفين العرب و الأجانب وسيظل الرئة التي ينتفس منها المثقف العراقي.

## المصادر

١. مانغويل ، ألبرتو. تأريخ القراءة، ترجمة سامي شمعون، سوريا، دار الساقى ، 2001، 75ص.
٢. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى. أدب الكتاب، لبنان، دار الكتب العلمية، 1994، 118ص.
٣. عواد، كوركيس. خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، لبنان، دار الرائد العربي، 1986، ط2، ص3-9 .
٤. نفس المصدر السابق....ص8.
٥. الطبري ، محمد بن جرير (310هـ). تأريخ الرسل و الملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، مصر، دار السعادة ، 1966، 27ص.
٦. نيبور، كارستن. رحلة نيبور الى بغداد في القرن الثامن عشر ، ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ، مطبعة دار المعرفة ، 1954.
٧. جريدة المدى للإعلام و الثقافة و الفنون ، بغداد ، مؤسسة المدى للإعلام و الثقافة و الفنون ، 896 ع بتاريخ الثلاثاء 2007/3/12.
٨. جريدة الشرق الأوسط -. المملكة العربية السعودية: شركة السعودي للنشر و البحوث-. ع. 10326 بتاريخ الأربعاء 2007/3/7.
٩. نفس المصدر السابق...
10. درويش ، محمود فهمي ، أحمد سوسة ومصطفى جواد. دليل الجمهورية العراقية، بغداد، مطبعة التمدن، 1960 ، ص544.
11. البغدادي، يونس الشيخ ابراهيم السامرائي. مجالس بغداد، بغداد، المكتبة العالمية، 1985. ط1، ص194-197.
12. دليل الجمهورية العراقية، مصدر سابق، ص544.

13. مقابلة مع السيدين نبيل و نجاح عبد الرحمن حياوي بتاريخ 2007/12/26. وترتبط عائلة الباحثة مع عائلة المرحوم عبد الرحمن حياوي بعلاقة عائلية.
14. جريدة الشرق الأوسط ، الرياض، المجموعة السعودية للأبحاث و التسويق ، ع. 10327 بتاريخ الخميس 2007/3/8.
15. جريدة الشرق الأوسط ، الرياض ، المجموعة السعودية للأبحاث و التسويق ، ع. 10326 بتاريخ الأربعاء 2007/3/7.
16. نفس المصدر السابق...
17. التوحيدي، أبي حيان. كتاب الإمتاع و الموانسة، بقلم أحمد أمين و أحمد الزين ، بيروت، المكتبة العصرية ، بدون تاريخ(ج1) ، ص ج- د. .
18. عواد ، كوركيس . خزائن الكتب، مصدر سابق ، ص 29.
19. المصدر السابق ، ص 28.
20. الحسيني ، السيد محمد صادق . عمران بغداد ، بغداد ، مطبعة السلام ، (1348هـ / 1930 م)، ص 74.
21. عواد ، كوركيس، خزائن الكتب، مصدر سابق ، ص 191-192.
22. نفس المصدر السابق...
23. المصدر السابق، ص 264-266